رؤية في القصة

بقلم الدكتور عبد السلام العجيلي

حين قبلت الحديث امامكم (*) في الموضوع الذي اتحدث فيه الآن عجبت من نفسي . بل لعل الاصدق أن أقول سخرت من نفسي . لماذا ؟ انا كاتب قصة . هذا واقع لا مرية فيه ولا قدرة لي على دفعه . غير ان الحديث في القصة او عنها شان ما اكثر ما اعتذرت عن تجنبه ، وتهربت منه . وان كنت قد قاربته في مرات قليلة فانني كلما ألجئت الى التحدث عن رأيي في القصة ، او عن مذهبي في القصة ، او عن غاياتي من كتابة القصة ، كنت أقول لنفسي هذه آخر مرة واني لن اعود الى مثلها . ولكن ها انا اجيء من بلدي البعيد ومقري النائي، حاملا نفسي واوراقي ، لاتحدث به اليكم انتم نخبة النخبة في الثقافة والنقد والخلق والابداع .

قد تسالون عما يسوقني الى الابتعاد عن الحديث في القصة ، ومحاولتي المستمرة في تحقيق هذا الابتعاد . ثمة سببان أعطيهما جوابا لمثل هذا السؤال . أول السببين ينبعث من ان الحديث في القصة ، وفي قصتي انا بصورة خاصة ، يقودني الى التعمق لا في دقائق اسلوبي فحسب ، بل الى التعمق في اغوار نفسي بحثا عن المنابع والدوافع وعن الطرائق والاصول التي منها وبها تبرز قصتي التي أكتبها ، ومن اعتقادي بأن هذا التعمق في دقائق الاسلوب واغوار النفس مضر بالانتاج الفني المتمثل بتلك القصة . من أين يأتي الضرر ؟ لقد أجبت على هذا في احدى المناسبات فقلت : ان البحث عن مذهب الكاتب فيما يكتبه أمر من وظيفة الناقد ، ومن الصعب على المرء أن يكون ناقدا مثاليا لنفسه . وان تتبع الكاتب تتبعا درسيا لمذهبه في الكتابة وتحليله دوافعه النفسية قد يكون فيه الضرر على انطلاقه في الكتابة والانتاج الفني ، ذلك الانطلاق الذي كثيرا ما ينبعث بصورة عفوية ، اي بالصورة التي يسميها الفنان الهاما ، وقد يتجوز فيسميها وحيا . أمر الكاتب الفنان في هذا كأمر انسان يفكر في الطريقة التي يسير بها في الشارع على قدميه ، متتبعا حركات أعضائه عضوا عضوا ، وعضلات أطرافه عضلة عضلة . لا بد له من التعثر في طريقه وهو يدقق باية قدم يبدأ المشي بها ، باليمنى أو باليسرى ، وباية يد يحركها مرافقا بها حركة الرجل . دعك من تفكيره بالعضلات التي يحركها واحدة بعد الاخرى للوصول الى غايته من رفع القدم او تحريك اليد ...

هذا أحد السببين في ايثاري البعد عن الحديث في القصة . والسبب الآخر منبعث من تعلقي بكتابة القصة نفسها ، ومن حرصي على ان أي جهد أدبي أبذله يجب أن يكون في صنع القصة لا في الكلام على صنعها . اني من المعجبين بتلك الجملة التي قرأتها مرة منسوبة الى مارسيل جوهاندو ومرة الى روجيه مارتين دوغار ، والتي تقول : « الادب ؟ لا تتكلموا عنه ، بل اصنعوه ! » . فانا أفضل صنع الادب على الكلام عنه . أفضل هذا حتى لو كنت متفرغا للادب ، كل وقتي مصروف اليه ، ولا انشغال لي بغيره . فكيف وأنا امرؤ تستغرقني أنواع شتى من النشاطات والاعمال ، والادب ، على طول ممارستي له ، لا يزال عندي هواية املأ بها ما يتركه لي العمل من وقت ؟! ان هذا احد اعذاري في الانصراف عن الكلام في الابداع ، الى الابداع ذاته . الابداع عمل فني ، أما الكلام عنه فهو دراسة أدبية قد تسمو فتكون انارة للعمل ونقدا واعيا ، وقد تتدنى فتكون سفسطة او جدلا عقيما يستهلك ، دون طائل ، الجهد والوقت .

هذان سببان احسبهما مقنعين لنفسي ولكم بأنه أجدى أن أتجنب مثل هذا الحديث الذي أقرع به الآن أسماعكم وأن أنصرف الى كتابة قصة قصيرة او فصل من رواية . وعلى الرغم من ذلك ترونني أقف بينكم لاسفسط عن كتابة القصة بدلا من انتاجها . هذا ما يقودني الى العجب من نفسي ، العجب الذي يصل الى حد السخرية . لم أفعل هذا ؟ لا شك في ان لتصرفي أسبابه الواضحة والخفية . ولعل من هذه الاسباب حكم الظروف وعدوى البيئة . أتراني وحدي الذي يستسهل الدروب ويتبع المغريات بهينات الامور ، فيهرب من الانتاج الى السفسطة ؟ أم انه زي العصر ، في بلادنا ومختلف اوساطنا ؟ ألسنا اينما التفتنا نجد الجدل قائما في مكان يجب أن يقوم فيه العمل ؟ أكاد كأديب أجد العذر لي وللكتاب أمثالي ، اذا هربنا من الانتاج الفني الى الكلام عن الانتاج الفني . نحن ان فعلنا هذا فان كل جريرتنا اننا استبدلنا كلاما بكلام . في حين نجد غيرنا حولنا يستبدل بالكلام الاجوف وشقشقة اللسان الفعل الصحيح والعمل المثمر اللذين تتوقف عليهما في بعض الاحيان حياة الافراد ومصير المجموع .

نعم ، قد يكون الزي الشائع هو الذي يسوق الكتاب الى الحديث عن انتاجهم بدلا من الانتاج ذاته . وقد تكون متابعة هذا الزي هي التي تفسر مظهرا آخر من المظاهر الطاغية على العمل الادبي في هذه الايام في ألوانه المختلفة ، في القصة والشعر وفي المسرح . المظهر الذي أعنيه هو اطلاق الاسماء على غير مسمياتها ، وأحيانا على عكس المسميات ، وقول الكلمات لتضل عن المعاني لا لتدل عليها . انه زي أمسى شائعا عندنا في كل ميادين الحياة : كم سميت الكوارث مكاسب، والهزائم انتصارات ، وقيل حرية وكان طغيان ! وما شذ الادب عن القاعدة السائدة : منذ قرابة شهرين صدر من احدى مجلاتنا الفكرية عدد خاص بالقصة . كانت في هذا العدد قصص ، والى جانبها كانت صحائف مكتوبة بما سمي قصصا ولكن ما فيها من كلام بعيد عما يمكن أن يسمى قصة . ربما كان محتوى تلك الصحائف كلاما حلوا ، ذا تناغم جميل ، وصورا جذابة ، ولكنه ليس محتوى قصصيا . ويقيني

(*) نص محاضرة ألقيت في الشهر الماضي بقاعة النادي الثقافي العربي في بيروت بدعوة من اتحاد الكتاب اللبنانيين .

ان هذا ما يلاقيه كل منا في مختلف مجلاتنا الادبية اليوم حين يقرأ ما هو مصنف باسم شعر او قصيدة . ثمة شعر حق ، ولكن ، من كلام مرصوف ، بل مقذوف ومبعثر يفتقد الوزن ، اي وزن ، والقافية ، اية قافية ، ويفتقد امكانية الافهام أو اثارة الاحساس ، من مقومات الشعر الرئيسية ، بين ما ينشر باسم الشعر ؟ لماذا أيها السادة يا من تكتبون ؟ أعن فقر في اللغة العربية بالكلمات تسمون الاشياء بغير مسمياتها ، أم عن حب للاستيلاء على القيم الثابتة واستلاب ما هو حق للآخرين تضعون على ما تنتجون علامات غيركم الفارقة ؟

أم انكم تقولون انما نفعل فعل غيرنا فلا تطالبونا بما لم يطالب به غيرنا . تقولون : لماذا يدجل الساسة ، ويغش الباعة ، ويأكل الكبار كل يوم حق الصغار فيسكت عنهم ، بل ويثرون ويمجدون ، ونطالب وحدنا الذين نكتب بان يلتزم كل منا حده ؟ تقولون حطمنا الضوابط وتجاوزنا التعاريف ، فسمينا ما نشاء بما نشاء ... كتبنا هذرا او تخاريف ، وكلاما لا رابطة بين أجزائه ولا ضابط له وسميناه قصة ... هذا شأننا ، ولكم انتم شأنكم !

هذا كلام قد يقال لنا في معرض استنكارنا للالوان الممسوخة من الكتابة والملحقة تطفلا بالقصة او الشعر ، فنبتسم لقائله ، ولكننا لا نعطيه فيه حقا . وعلى ضوء رؤيتي للقصة أجده كلام عبث شديد المجانبة للحقيقة . فانا من القائلين بان اسما ما في الادب ، وفي غير الادب ، يجب أن ينطبق على مسماه ، وان كلمة ما يجب أن تؤدي معناها . القصة عندي هي ، قبل كل شيء ، قصة .

في صغرنا كنا نتندر برواية أشعار نصفها بالغثاثة لانها لا تحمل لقارئها أو سامعها معنى جديدا أو محتوى ذا جدوى ، مثل البيت الذي يقول :

الليل ليل والنهار نهار والارض فيها الماء والاشجار

او البيت الآخر :

الارض أرض والسماء سماء والنار قيل بانها حمراء

وما كنا نظن انه سياتي اليوم الذي نردد نحن فيه مثل هذا الكلام لنقر به حقيقة يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار ، او ان نخوض في ذلك جدلا ونلقي محاضرات . والا فهل قولي بان القصة هي قبل كل شيء قصة ، غير قول من هذا القبيل ؟

منذ اعوام اشتركت في ندوة تلفزيونية كان من أعضائها كاتبة قصة ومثقف ينتسب الى عالم القصة بكتابتها حينا وترجمتها حينا آخر . واستمعت الى زميليّ في الندوة يعرفان القصة فلم أملك غير اندفنت وجهي في كفيّ لئلا يفهم المتطلعون الى شاشة التلفزيون معنى ابتسامتي مما أسمع . القصة كانت ، في التعاريف المعطاة ، التفاتة زمنية مجمدة بصورة فنية في اطار الواقع ... أو هي ازمة نفسية مسلطة عليها أنوار مجهر العواطف البناءة ... واشياء أخرى من هذا القبيل ، لا اذكر نصها ولكني حاولت ان اقارب ذلك النص . لماذا هذا التقعر ، وذاك اللف والدوران ؟ أليست القصة ، من قصة خلق الدنيا ، الى قصة يوسف ، الى قصة الاخوة كارامازوف ، هي حكاية ؟ اما هي رواية أحداث متتابعة ، لا يمكن ان توجد بدونها ؟ نحن حين نقول انسان فاننا نعني به الحيوان الثدي" ذا القامة المنتصبة المتمتع بالذكاء والنطق المفصل . هذا هو التعريف الجامع المانع ، كما يقول المناطقة ، للانسان . بعده يمكن لهذا الانسان ان يكون طويلا أو قصيرا ، فاسقا او فاضلا ، أسود او أشقر . وكذلك القصة : هي حكاية قبل كل شيء ... وبعدها قد تتجمد فيها الالتفاتة الزمنية أو تسيل ، وقد تنحل فيها الازمة النفسية أو تتعقد تحت المجاهر البصرية والالكترونية . الا انها لا تكون قصة ما لم تكن حكاية .

أرجو ان تعذروني اذا رأيتم اني أفسر لكم الماء بالماء ، واني اشغل وقتكم بما يحسب بعضكم انه بديهية ليس من يجادل فيها . الذين يحسبون هذا حسنو الظن كثيرا ، أو بعيدون عن التيارات الحديثة المسلطة على آدابنا اليوم ، او ان هذه التيارات تمر تحتهم دون ان يشعروا بخطرها في تقويض مفاهيمنا الثقافية واسس تذوقنا الادبي . ذكرت لكم قبل قليل المجلة الفكرية التي أصدرت عددا خاصا بالقصة منذ شهرين . من بين القصص المنشورة في ذلك العدد اثنتان على الاقل بعيدتان كل البعد عن تعريف القصة ، وسميتا برغم ذلك قصة . تتألف احدى القصتين من أربع مقاطع أريد أن أتلو عليكم مقطعين منها .

المقطع ٢)

صرخ الاب غاضبا في وجه ولديه :

ـ كفا عن هذه الثرثرة .

قال الولد :

ـ سنأكل الدجاج .

قاطعه أخوه :

ـ لا .. الحمام .

ـ لا .. الدجاج .

ـ لا .. الحمام .

ـ لا .. ال

ولما ازداد صياح الولدين اضطر أبوهما للخروج وسط ضحك العائلة بينما بقعة قاتمة لا تزال تغطي الوجوه ، والقمر ينير العالم .

المقطع ٤ :

في الصباح قرأ في جريدة واسعة الانتشار خبرا سريعا يقول :

« مسابقة الربيع

الفوز مضمون جدا ،

اقرأ التفاصيل في الصفحة السادسة » .

لم يصدق ، مزق الجريدة ونام .

اعرف انرواية جزء من قصة لا يصلح أساسا للحكم على مجموعها. ولكن صدقوني بانالجزئين الباقيين من تلك القصة ، وعنوانها « الرجل الذي نسي عيد الميلاد » ، لا يختلفان عن الجزئين اللذين تلوتهما في انتفاء الصفة القصصية عنهما وفي فقدان اية رابطة لهما بالاجزاء الاخرى ، وحتى بالعنوان . والقصة الثانية تقارب الاولى في هلهلة التأليف . انها تشبه لوحات الملصقات التي راج سوقها في ميدان الفنون التشكيلية في فترة ما : قطعة خيش ، قصاصة جريدة قديمة ، نفاية من صندوق القمامة ، وسحبة بويا . تتألف هذه القصة الاخيرة من خمسة عشر مقطعا... لا تخافوا ، لن أقرأها كلها عليكم بل سأكتفي منها بهذين المقطعين القصيرين :

المقطع ٩ :

كنا أفكارا اكثر منا أجسادا .

المقطع ١٥ :

واد ذو زرع . جنة الله على الارض . هل قرأت « روبنسون كروزو » ؟

لنذهب الى هذا الوادي .. أنا لا أغشك .

لكنني أخشى ما أخشاه يا محمود أن يكون سبقنا الى الوادي هاربون قبلنا .

هذا كل ما يقوله المقطع الخامس عشر ، وهو المقطع الختامي من تلك القصة : هل قرأت روبنسون كروزو ؟ ذكرتني هذه الجملة بالوالي الدمشقي الذي وضع جائزة ينالها من يقص عليه قصة عديمة المعنى ، قصة باردة كما كانوا يسمونها . على ان يكون جزاء من يتقدم لنيل الجائزة فيتبين ان لقصته أية قيمة أو معنى عشر جلدات بالسوط على ظهره . وتقدم الى الوالي ، طمعا بالجائزة الثمينة ، أسوأ الرواة بأسخف الحكايات فآبوا كلهم بالاسواط على ظهورهم . الى أن جاءه في ذات يوم أحدهم يحمل كاغدا ملفوفا في اسطوانة مجوفة ، فاخرج الكاغد من الاسطوانة ونشره أمام الوالي وقرأ فيه سؤالا : هل ذهبتم

يا مولاي الى بيروت ؟ قال الوالي : لا . قال الحكواتي : وأنا لم أذهب اليها يا سيدي ! وعاد فلف كاغده وأدخله الاسطوانة ... ففاز بالجائزة .

هل قرأت روبنسون كروزو ؟ لا ، لم أقرأه . ـ ولا أنا يا صديقي. وفازت هذه القصة بالجائزة أيضا ...

ومن المفيد أن نقول بأن مؤلف هذه القصة الاخيرة التي شبهتها بالملصقات قاص ذو قدم راسخة في كتابة القصة المفهومة والمقبولة . ليس عن عجز كتب ما تلوت بعضه عليكم ، ولكنه فيما أحسب سوء تقدير لدلالة اسم القصة، أو سوء تقييم لافهام الناس وأذواقهم ، أو انه جري وراء ما يظن تجربة طليعية دون ادراك ان الطليعية لا تكون ذات قيمة ما لم تكن محدودة الهدف المستقبل واضحة الارتباط بالاصول .

أرجو ان لا يظن المستمعون اني ممن يتمسكون بالقوالب الجامدة ، وممن يرون ان لا فن الا ما استنه وحدده ووضع قواعده الاوائل . وفي هاتين القصتين اللتين عنيتهما فيما تحدثت به ، قد تكون أعجبتني بعض مقاطعهما ، أو بعض صورهما ، أو بعض جملهما . وحتى لو لم أعجب منهما بشيء ، فلا بد أن يكون فيهما ما أعجب انسانا واحدا على الاقل هو رئيس تحرير المجلة التي نشرتهما في عددها الخاص الممتاز . كل انتقادي عليهما انهما سميتا بما ليس هو اسمهما. انهما شيئان مكتوبان غير القصة . اني في هذا الامر أقترح ان تنحت أسماء جديدة لهذه الالوان من الكتابة الطليعية التي ما عرفها الاولون ، في القصة ، وفي الشعر أيضا ، وأن تترك الاسماء القديمة لتلك الفنون كما تراضى بها الناس وتعارفوا بينهم عليها . وليس ذلك عسيرا . فاللغة واسعة ، ومجال الابتكار رحب . وأنا أعرف ان ثمة أسماء استحدثت للشعر الجديد ، استحدثها وسماه بها أنصار الشعر القديم . الا ان هذه أسماء سخرية أرادوا أن يهزأوا بها من هذا الشعر الجديد الذي لم يرضهم . ولست أقصد هذا أنا . اني أريد أسماء جديدة ليس فيها ما يعيب أو ينتقص من قيمة الالوان المبتكرة حديثا من الكتابة ، وفيها الدلالة على ما تمثله هذه الالوان المبتكرة أو الطليعية . وحين يعجز المهتمون عن ايجاد تلك الاسماء فاني أدلهم الى الطريقة المتبعة اليوم في استنباط أسماء وافية بالمرام لمسميات جديدة في البلدان المتقدمة ، طريقة متبعة بصورة خاصة في تسمية المستحضرات الاستهلاكية الجديدة : ما لنا الا أن نعطي أحد الادمغة الالكترونية مواصفات الاسم الذي نريده ، من معنى وموسيقية وعدد حروف ، فيعطينا الدماغ الالكتروني بغيتنا بأسرع وقت وعلى أكمل وجه . وبهذا نكون وجدنا للفن الطليعي اسما طليعيا بطريقة طليعية ، جد عصرية .

في هذا الكلام الكثير الذي قلته أجدني لا أزال أقف من رؤيتي الى القصة على الناحية السطحية ، عند ناحية الشكل . فهل القصة مجرد شكل ؟ أم انها في شكلها الخاص وعاء يحتوي ، أو يجب أن يحتوي ، ما هو أبعد من قشرتها الظاهرة ؟

من الناحية المبدأية لا شيء يحول دون أن تكون القصة مجرد حكاية مسرودة ، وتروق مع ذلك لسامعها أو قارئها . أقول من الناحية المبدأية ، وهي من الناحية البدائية كذلك . الذين عندهم أطفال لا بد من انهم مروا بالتجربة التي مر بها كل أب وأم ، تجربة حكاية قبل النوم . يطالبك طفلك بقصة تهدهده لينام ، فاذا خانتك الذاكرة ونسيت حكايات جدتك فانت تلفق له أية حكاية فيستمع اليها مشغوفا. انه لا يجادلك في امكانية حدوثها أو تعذر هذا الحدوث ، ولا بكونها هادفة أو مجردة من المغزى الاخلاقي ، ولا بمصدرها وأسانيدها . يكفيه ان تكون حكايتك متسلسلة الاحداث ، غير فاضحة التناقض في الوقائع. تلك هي القصة في الطفولة ، طفولة الافراد وطفولة الامم والآداب . وشيئا وراء شيء ، مع تقدم السامع والقارىء في الادراك ، وتقدم الامة في الحضارة ، والادب في النضج ، تتحول الحكاية الى قصة ذات محتوى يزداد غنى ومتعة ويزداد تعقيدا . واني لارى ان القصة في قيمتها وفي تكاملها قد سارت موازية لتقدم الحضارة ، حتى أصبحت اليوم الفن الرئيسي الغالب بين فنون الادب . ومثلما ساد الشعر تلك الفنون قرونا عديدة وفي حضارات كثيرة ، ومثلما احتل المقال والدراسات التي تضمها فصول من المقالات ميادين الثقافة في عهود متباينة وأطوار معينة من الحضارة ، نجد القصة الآن هي التي تحتل الذروة وتكون اللون الادبي الشامل الذي يضم في مطاويه الشعر والفكر الفلسفي والتطلعات الاجتماعية . وفي رأيي ان القصة ما أخذت مكانها الحالي بين فنون الادب الا لانها الفن الذي أصبح مؤهلا لاستيعاب تعقدات الحضارة العصرية ، ولتعدد القضايا الفكرية والفنية التي تثيرها هذه الحضارة ، ولتزايد العناصر التي تتألف منها وتخلقها هذه الحضارة الى درجة تضيق بالتعبير عنها فنون الادب الاخرى ، ولا سيما الشعر . لم تفق القصة الشعر في قيمته الجمالية ولا أغنت عنه في ادائه للاحساسات الانسانية ولكنها احتوته ، أعني احتوت الشعر ، مثلما احتوت عناصر فكرية وعاطفية أخرى .

اسمحوا لي ، ما دمت أتكلم عن رؤيتي الشخصية للقصة ، أن أستشهد في هذا بنفسي وبتجربتي الخاصة في التطور الابداعي . لقد نظمت الشعر سنين عديدة ، وكان أول انتاج أدبي لي شعرا . ولا أزال الى اليوم من محبي الشعر ، المتأثرين شديد التأثر بقراءته ، التائقين دوما الى أن يقولوا فيه ولو كلمات متباعدة بين فترة وأخرى . وحين أعود الى سنوات الخلق والابداع الفائتة الحظ كيف بدأ تحولي من الشعر الى القصة يزداد مع ازدياد تفكيري ومعرفتي بالحياة وعلاقاتي بالمجتمع . شيئا فشيئا أخذ الشعر يضيق عن استيعاب أفكاري وحتى عن التعبير عن مشاعري ، بينما تفتحت لي بالقصة آفاق تعبير واسعة وأدوات خلق رائعة يسهل عليّ فيها أن أشرح الفكر وأغني العاطفة وأروي الخيال وأقص الاحداث . واني لاذكر حادثة في قصة لي بعينها. القصة هي قصة « كفن حمود » التي أثرت في نفوس الذين قرأوها تأثيرا كبيرا . حين كانت هذه القصة في ضميري مجرد فكرة تهيأت للتعبير عنها بالشعر في قصيدة تتألف من عدة مقاطع . وحقا لقد بدأت بنظم تلك القصيدة ، الا اني ما لبثت حتى أدركت ان الشعر يضيق بما أريد قوله ، وانه يريدني أو يقودني الى قول ما لا أريد قوله، فتحولت من القصيدة الى القصة ... الى قصة مؤلفة من عدة مقاطع قصيرة ، كأنها قصيدة .

لست أنكر في هذه الحادثة امكانية تفسير تحولي من القصيدة الى القصة بضعف في استطاعتي الشعرية قعد بي عن حسن الاداء بالشعر عما كنت أريد أن أؤديه من فكرة ومشاعر وأحداث . الا انه ما من شك في ان اهاب الشعر قد ضاق عن احتواء ما يراد له أن يحتويه من تعبيرات عالمنا الحاضر ومشاكل عصرنا المعقدة والمتعددة . ولعل هذا الضيق هو أحد الاسباب التي دعت الى ظهور الحركات الجديدة في الشعر ، المعتبرة الوزن والقافية قيودا يجب تحطيمها ، والمولدة أشكالا هجينة من النظم بحجة القدرة على التعبير عن قضايا الانسان المعاصر . ربما كان المنطلق في ظهور تلك الحركات الجديدة صحيحا ، ولكن الاشكال المولدة بديلا عن الاشكال المألوفة ما استطاعت أن تفي ، في الغالب ، بما كان يرجى منها . فبات مولدو هذه الاشكال كالمنبت ، لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى ... لا هم أبقوا على الشعر العربي في مقوماته الموسيقية والتأثيرية ، ولا هم بلغوا في انفلاتهم من القيود مبلغ حسن التعبير أو افهام الجماهير أو تمام الاحاطة بقضايا العصر الكبرى أو الدقيقة .

لقد استشهدت لكم بنفسي في هذا الموضوع ، وأنا مقر بتواضع ذلك الاستشهاد . على اني أستطيع أن أضيف الى ذلك قولي بأن كثيرا من كبار القاصين في الآداب العالمية بدأوا شعراء وانتهوا كتابا روائيين . أو انهم ظلوا الى جانب القصة ينظمون شعرا ، ولكنهم

ـ التتمة على الصفحة ـ ٦٥ ـ

رؤيــة فــي القصة

ـ تابع المنشور على الصفحة ـ ٢٠ ـ

بالقصة عرفوا بيـــن القراء والناس كافة . لماذا ؟ ان القدرة عـــلى الاستيعاب وامكانية التعبير المتوفرة في القصة هما سبب ، ولكن ثمة أسبابا أخرى . ويتراءى لي أحيانا ان طبيعة تركيب حضارة هـــذا العصر ، أو الحضارة السائدة في العـــالم طوال القرن الذي ينتهي بأيامنا هذه ، متناغمة مع التركيب القصصي في التعبير الادبي . هذا كلام يبدو في حاجة الى شرح ، وأفضل أن أشرحـــه بالامثلة . فاذا عدت الى تجربتي الشخصية وجدت أجمل ما كتبته من شعر ، أيام انظم الشعر ، كان مكتوبا باسلوب قصة . حين أتغنى بجمال ليلة فاني لا أجد أفضل من أن أتصور فيها النجمة الزهراء عاشقة للقمر الساطع بجانبها ، وأتصور ائتلاق أنوارهما حوارا أديره بينهما كحوار العشاق في قصصي . وحين أتغزل بفتاة أروي لها أشواقي في حكاية لها بداية ونهاية ولها أحيانا عقدة كعقدة القصة المشوقة . انه عالمنا الذي نعيش فيه ، عالم الحكايات . العلم يتلقاه أطفالنا في قصص ، والتاريخ نقرأه قصصا ، والاعلانات في الجرائد والمجلات نجدها حوارا ورواية أحداث. وقد قلت ان كثيرا من الروائيين العالميين تحولوا الى الرواية بعد أن كانوا شعراء ، وأقول أيضا ان كثيرا من الروائيين ظلوا شعـــراء في احساسهم وتفكيرهم ، وعبروا عن هـــذا وذاك باسلوب قصصي . والا فمن يكـــون دستويفسكي وتولستوي ، وشارلوت واميلي برونتي ، وتوماس مان ، وفرانسوا مورياك واندره جيد ، وبين العرب توفيـق الحكيم ، غير روائيين شعراء ؟

ليس الشعراء وحدهم . فثمة روائيون فلاسفة وروائيون صحفيون وروائيون مصورون فوتوغرافيون . لان الرواية ، والقصة بصورة عامة ، هي كما أسلفت الفن الادبي الشامل ، المتسع لكـــل الفنون الاخرى . أتراني أقول هذا تعصبا مني لفن عرفت به من الناحية الادبية وأنتجت فيه أهم انتاجي ؟ قطعا لا . فانا أرى بوضوح ان القصة اذا كـــانت اليوم الفن الشامل ، فانها لن تكون ذلك غدا . لقد قلت ان قيمتها تقدمت بتقدم الحضارة وتأكدت حين ضاقت أساليب التعبير الاخـــرى عن استيعاب معطياتها بينما استوعبت القصة تلك المعطيات وأحسنت عنها التعبير . ولكن الحضارة مستمرة في تقدمها ، وسيأتي اليـــوم الذي تضيق القصة نفسها بالتعبير الوافي عما يريد الانسان الجديد أن يعبر عنه ، فيبحث هذا الانسان عن وسيلة تعبير جديدة له أو يخلق هذه الوسيلة . لنتأمل في أمر السينما والتلفزيون وفي اتساع موجة التعبير بالوسائل السمعية البصرية نجد ان فنونا جديدة أشمل من القصة ، لانها تحتوي القصة فيما تحتوي ، أخذت ترسخ مكانتها في اهتمام الانسان المعاصر . وليس مستبعدا أن يأتي اليوم الذي تزحزح فيه الاساليب السمعية البصرية ، أو ما يستنبط منها من وســـائل التعبير ، أن تزحزح القصة الى مكان خلفي مثلما فعلت القصة بالشعر في هذه الايام .

ولكن لم نستبق الزمن ونبحث عما سيكون في غد قبل مجيء غد ؟ في غد سيجد الفنان الحق وسيلته الحق للتعبير . كبار فناني العالم كانوا شعراء في الماضي ، وكبارهم في المستقبل ربما أضحوا المخرجين السمعيين البصريين ، مثلما هم القاصون الآن . ويبقى الفنان الحـق أيضا هو الذي يحسن التعبير بالاداة التي يستخدمها والتي تتكاتف في اختيارها له موهبته الشخصية ، وظروف العصر والبيئة والمجتمع التي تحيط به . الا ان التعبير نفسه يظل في الدرجـة الاولـى حصيلة موهبته الشخصية ، وعلى الاصح نتيجة العوامل الشخصية عند الفنان مـــن موهبة ونوازع ودوافع .

وفي الواقع هل القصة في صورتها الفنية غير انعكاس شخصيـة القاص على الحياة والاحداث ، أو تسجيل ذلك الانعكاس بحبر عـــلى ورق ؟ وانا اعني هنـا بشخصية القاص حصيلـــة مكوناته الفكرية والنفسية ومكتسباته من الحياة والمجتمع ، وحتى موروثاته المتأديـة اليه من آبائه الاولين . وبالطبع ، لم يكن هذا الوصف للقصة منطبقا عليها في كل أدوار حياتها . ففي طور الطفولة ، طور حكاية الطفولة التـي أشرت اليها قبل ، كان القاص يروي أحداثا جرت لآخرين كأنه ينقـل خبرا بلسان محايد ، ليس في روايته له رأي ولا هوى . وكان ذلـك طورا قديما بعد ما بيننا وبينه الزمن وتعددت المراحل . اما القصـة المعاصرة ، القصة الفنية التي تعنينا ، فانها قطعة من كاتبها ، يضـع فيها بلاغته وثقافته وأفكاره ومشاعره ، وكثيرا ما يضع فيها ذاته . وحين أقول ذاته لا أقصد القصص الاتوبيوغرافية وحدها ، بل انـي أقول ان كل بطل من أبطال أي روائي يحمل جزءا من ذات ذلك الروائي في أغلب الاحيان ، وأكاد أقول في كل الاحيان ، وبعضا من صفاته . ليس الابطال الخيرون وحدهم ، بل الشريرون كذلك . وهذا ما أوجزه فلوبير في كلمة واحدة حين قال : مدام بوفاري ، انها أنا !

ايما بوفاري ، مدام بوفاري ، هي غوستاف فلوبير . وكل بطـل في كل قصة هو مؤلف تلك القصة ، أو فيه ملامح قد تكثر أو تقل من ملامح المؤلف وصفات من صفاته ، شاء المؤلف ذاك أم أبى ، وعـــاه أو لم يعه . ذات مرة رددت في رسالة خاصة على ناقد اتهمني فـــي مقال له في احدى المجلات بأني كـــاتب نرجسي ، مولع بادعـــاء الدون جوانية وادعاء تهافت النساء عليّ ، مستنتجا هذه التهمة من قصة لي عنوانها « ضوء في النافذة » . بطـــل « ضوء في النافذة » رجل ثري تحبه سكرتيرته الشابة وتدعوه الى موعد في غرفتها فـــي ساعة متأخرة من الليل حين ينام أهل الدار . وقد كتبت للناقد يومها أستنكر خلطه ما بيني وبين بطل القصة ، في حين ليس بيننا صفة مشتركة : القصة ليست مروية بلسان المتكـــلم بل تروي حكايـــة سامح بك ، وهو رجل أعمال شائب الفودين ، يدخن ويشرب الويسكي غالبا والعرق أحيانا ، مدير لشركة كبيرة في مكتبه فيها سكرتيرة جميلة وأنيقة . وأنا ما كنت يوما رجل أعمال من هذا الطراز ، ولا كان عندي في يوم سكرتيرة ، ولست مدخنـــا ولا أشرب الخمر ، وحين نشرت تلك القصة لم تكن في رأسي شعرة بيضاء . وقلت للناقد في رسالتي انك تعرف كثيرا من هذه الامور عني ، فلماذا تصر على أن تعتبرنـــي شخصيا بطل « ضوء في النافذة » وتتهمني اني فيما أكتبه أتبجح أمام قرائي بمغامراتي مع جميلات النساء ؟ لم يكن لدى الناقد ما يجيب به على سؤالي واستنكاري . وأنا واثق بأنه لم يكن مغرضا في نقده ، وانه لو أجابني لقال انه لم يبحث في الوقائع حين كتب ما كتب ، ولكنـه اورد احساسه كناقد . وعليّ الآن ان اعترف بأن ذلـك الاحساس، عند ذلك الناقد ، كان صادقا ، وانه لم يجانب الحقيقة كثيرا فيما كتبه ، وان كانت الوقائع الظاهرية تخالف تقديره وحكمه .

كيف يصح هذا الذي أقوله ؟ الواقـــع ان سامح بك كان أنا ، او اني كنت كل الكينونة سامح بك ، رجل الاعمال ، حين كتبت قصته. قبل كتابة القصة وأثناء كتابتها عشت حيـــاته وتقمصت شخصيته وشغفت مثله ، أو معه ، أو عنه ، بتلك الفتاة ، سلوى ، التي شغف هو بها . وقفت في منتصف الليـــل والمطر يهطل رذاذا على الرصيف المقابل لدارها أترقب أن تضيء لي النافـذة لاتسلل الى تلك الدار . وفي أثناء ذلك الترقب خفق قلبي في صدري ، او خفق قلبي في صدر سامح بك بشدة حتى لقد مددت أصابعي أجس نبضي خشية أن أكون أصبت بنوبة قلبية . ثم حين سطع النور في النافذة قطعت الشارع ، وبدلا من أن ألج المدخل المؤدي الى غرفة الحبيبـــة انحرفت وتابعت سيري الى النادي حيث رفضت كأس الويسكي الذي قدمه أصحـــابي اليّ وشاركتهم شرب العرق ... نعم لقد كنت سامح بك ، وفعلت كل ما فعله ، لاني عشته . عشته في ضميري ، وفـي تفكيري وخيالي . ولاني عشته حقا ، وصفته بدقائقه وصفا أقنع القراء ، وناقدي مـن بينهم ، بانه جرى حقا ، وانـه جرى لهذا الكـاتب مؤلف القصـــة . وما يهم بعد هذا ان يكون اسم من جرت له هذه القصة عبد السـلام أو سامح ، وأن يكون طبيبا أو رجل أعمال ، وأن يكون فوداه قد شابا

أم لا يزالان كجنح الغراب ، وان تكون او لا تكون له سكرتيرة شابة وحسناء ...

أبطال قصصنا هم نحن ، جزءا أو كلا . وأحداث تلك القصص جرت لنا حقا ، في الواقع أحيانا وفي الخيال أحيانا . ان الواقع والخيال عندي ، في ما أكتبه من قصص ، هما واحد في القوة وفي القيمة . أحدهما منطلق الآخر ، وأحدهما يتمم الآخر . من الواقع ينبثق الخيال ، ومن الخيال أرسم صورا وأصف أحداثا تصبح بقدرة الفن واقعا . هذا ما يشعر به قراتي ويعبرون لي عنه في أحاديثهم واستفساراتهم . كم من زائر لي في منزلي عجب حين لم ير زوجتي سويدية ، لانه وقر في نفسه منذ سنين اني متزوج من سالي ، تلك التي تزوجها أحد أبطالي في القصة التي كتبتها بهذا الاسم ؟ بل ان مارون عبود حين كتب عن مجموعتي « فناديل اشبيلية » وصف تلك القصة بأنها حكاية زواجي رويتها للقراء في قصة رائعة . وكم من سائل لي عن ملحق ذلك الفندق في بحمدون الذي قدت اليه باسمة ، مع ان الذي قاد باسمة ، في روايتي « باسمة بين الدموع » ، الى ذلك الملحق ، هو الاستاذ سليمان عطا الله المحامي الفاشل في الانتخابات النيابية ، والذي يكتب الافتتاحيات السياسية في جريدة حزبه في دمشق ؟ ليس القراء وحدهم هم الذين يختلط عندهم الواقع بالخيال في القصص التي اكتبها ، فيأخذون في الاعتبار عندهم مأخذا واحدا. فانا لا أزال أذكر ان أول شيء فعلته حين زرت لندن زيارتي الاولى عام ١٩٥١ اني تناولت دليل التلفون في الفندق الذي نزلته ، ورحت أبحث عن شارع كنجسلي رود الذي ذكرته في قصة لي اسمها « ساعة الملازم » . ذلك الشارع الذي اخترعته من عندي لضرورة القصة ، حين كتبتها ، وذلك في زمن لم أكن عرفت فيه لندن . وعبثا كنت أبحث في الدليل ، فلم يكن ثمة شارع بهذا الاسم . شعرت عندها بمزيج من الغيظ والاسى وأخذت أتساءل : لماذا لا يذكرون اسم هذا الشارع في دليل ضخم كالذي بين يدي ؟ انه شارع موجود ، فأين اختفى ؟ كيف لا يكون موجودا وقد وجد في قصتي ، تنفس فيه أبطالي ذات يوم وعاشوا فيه جزءا مهما من حياتهم ؟! وهكذا انقلب السحر على الساحر ، وأخذت أنا بالحبالة التي نصبت ...

حدثتكم بكل هذا عن نفسي وعن قصصي لاني أتحدث عن رؤيتي أنا للقصة . ترى أيصدق ما أتحدث به على كل قاص ؟ كلمة فلوبير التي أعدتها على أسماعكم توحي بأنه ، فيما كتب ، من هذا المذهب . وأحسب ان كل كاتب صادق مع نفسه مخلص لفنه هو في حال مثل هذه الحال ، تقاربها أو تفوقها . فاذا صح ما أقوله فان مشكلة طالما أثارت النقاش والجدل ، وطالما أسالت الحبر على الورق ، تكون قد حلت كلها أو في أغلبها . وأعني بها مشكلة التزام الكاتب ، والتزام الشاعر وكل فنان ، بقضايا مجتمعه وأمته وعصره . مطالبتنا للكاتب أن يكون ملتزما تكون بهذا غير ذات موضوع . فما دام كل كاتب هو ابن مجتمعه وأمته وعصره ، وما دام يضمن فيما يكتب ذاته وأفكاره وأحاسيسه وتطلعاته ، فلا مفر من أن يكون ما يكتبه مرتبطا كل الارتباط بالمجتمع والامة والعصر التي اليها ينتسب . فهو يعبر في كتابته عن قضاياها ومشاكلها وعن موقفه منها وتطلعاته نحوها ، بالرأي الذي يراه أصوب والطريقة التي يراها أنجع ، ويعبر عنها بالقوة التي تؤثر بها في نفسه وتتأثر نفسه بها . هذا هو الالتزام الصحيح والعفوي ، أما اذا أردت أن تقسر الكاتب على ان يكتب ما لا يتحسس به ، أو على ان ينعزل عما يشعر به ، فانك بذلك تسوقه الى الالزام لا تدعوه الى الالتزام .

لقد ذكرت الكاتب الصادق مع نفسه المخلص لفنه ، وما قلته ينطبق على الكاتب الذي يحمل هذا الوصف . ففيما عدا أولئك الذين يشذون عن شروط هذا الوصف فاني أرى ان كل كاتب ملتزم ، في عصرنا هذا وفي كل العصور . « ليس من أدب او فن غير ملتزم ، فبمجرد أن نكتب أو تفكر بالكتابة فانت ملتزم بقضية ما . حتى أوسكار وايلد الذي دعا بفكرة الفن للفن هو ملتزم ، بل ومن اكثر الكتاب التزاما بقضية المجتمع » . هذا الكلام ليس لي ، بل قرأته في محضر ندوة أقامها كتابنا الطليعيون ، الشباب والملتزمون ، في دمشق في الاسابيع الاخيرة .

ان الفن للفن تعبير يكاد يكون عاريا عن الدلالة عند ذلك الكاتب الصادق مع نفسه المخلص لفنه ، في كل العصور وفي عصرنا خاصة ، وعند كل الكتاب وعند الكاتب العربي بصورة خاصة . وقد قلت ذات مرة في حديثي عن المثقف العربي انه ، مثل كل مثقف في العالم ، مسوق الى الاهتمام بالقضايا الكبيرة في هذا العصر وبانخاذ موقف منها . بل انه جدير بأن يكون أشد اهتماما من غيره بتلك القضايا الكبيرة لان انباء بعضها لا تفارق سمعه كل يوم ، وبعضها تقرع عليه باب داره كل لحظة مذكرة اياه بأنها تعني بالنسبة اليه الحياة أو الفناء، والوجود او العدم . ومع ذلك فاني أعرف بعضا من كتابنا يتظاهرون بأن مذهب الفن للفن يعجبهم ، أو بأنهم يتبعونه ، في نوع من التحدي لمن يتصور الالتزام الزاما ، أو انتسابا الى القطيع ، او تطبيلا وتزميرا لنظام قائم ريثما يسقط هذا النظام فيطبل ويزمر لغيره . ومن ناحيتي فاني أعترف ، في سلسلة اعترافاتي أمامكم على هذا المنبر ، اني كثيرا ما تعمدت أن أكتب في المجلات الملتزمة قصصا بعيدة في ظاهرها عن الالتزام ، مسميا اياها قصصا محض فنية ، في رغبة ماكرة مني بمقارنة بين أدب صادق وآخر مصطنع . فكانت النتيجة اني فشلت في البعد عن الالتزام ، لان كل ما أكتبه يظل ملتصقا بقضية ما ، اذا لم تكن سياسية فهي نفسية أو فكرية ، من قضايا المجتمع او الانسان ... واني نجحت في تبيان ان أدبا لا يتبع الالتزام الرسمي ولكنه صادق وأصيل ، يفوق دوما أدبا رسميا يحظى ببركات النظم السائدة وتطلبات السوق المستهلكة ولكنه بعيد عن موهبة ترفده او صدق يزكيه . حين نشرت قصة « سالي » ، التي مر ذكرها بكم في هذه المحاضرة ، في عدد قديم من مجلة صديقي الدكتور سهيل ادريس ، « الآداب » ، كتب ناقد المجلة في العدد التالي منها كلاما في تلك القصة أسمح لنفسي بأن أتلو عليكم بعضه . كتب يقول : « ان سالي ... ليست في نظري قصة الشهر فحسب ، بل درة القصص من موضوعة ومترجمة ، ولؤلؤة العدد كله . طالعتها بلذة وشوق ، لم أتململ لحظة او أبرم... ولئن احتج جماعة الالتزام بأن « سالي » لم تعالج مشكلة بالذات من مشاكلنا ، فان فيها نفحة خلقية تتضوع مسكا من كل أردانها ، من كل أسطرها ، وهي عندي أروع من ألف عظة » .

ترونني قد اعترفت أمامكم بما كنت احتفظ به لنفسي منذ زمن طويل . ولا أدري بعد هذا الاعتراف هل يغلق أصدقائي أصحاب المجلات الملتزمة أمامي صدور مجلاتهم أم يظلون على ترحيبهم بي ، على الاقل ليسخروا من جيوش الكتاب الملتزمين ، الكاذبين أعني غير الصادقين ، متبعين بذلك سيف الدولة في طريقته التي وصفها المتنبي بقوله :

اذا شاء أن يلهو بلحية أحمق أراه غباري ثم قال له الحق ...

* * *

وبعد ، ترون اني في حديثي اليكم هذه الامسية تناولت القصة من ثلاث زوايا : شكلها ، ومكانتها في الادب المعاصر ، وصلتها بكاتبها . ثلاث زوايا للرؤية ، رؤيتي الشخصية . ثمة زوايا كثيرة للقصة لا تتسع محاضرة واحدة لوصف الرؤية منها أو اليها . وثمة راؤون كثر غيري الى القصة ، من كتابها ، لست أزعم بأني قادر على الاحاطة برؤيتهم وبآرائهم ونقلها اليكم . وقد أسهبت واستشهدت باثاري الشخصية ، وتجاوزت مصطلح التواضع بأن أوردت لكم ما أنني به الآخرون على أدبي . فأرجو أن تغفروا لي كل هذا من خلال تقديركم اني أردت أن أجنبكم مبتذل الاحاديث ، وأن أصدقكم برواية ما أحسه وأعتقده وأعمل به .

عبدالسلام العجيلي